ترقبوا «داعش» فى الداخل.. وليس عبر الحدود

أصبحت كلمة «داعش» هى أكثر الكلمات إثارة للقلق فى العالم، وليس فى منطقتنا فقط. مازالت هذه الكلمة شائعة فى الإشارة إلى تنظيم يمثل أقصى تطرف التطرف حتى بعد أن فقدت دلالتها. كانت «داعش» اختصاراً للاسم السابق لهذا التنظيم «الدولة الإسلامية فى العراق والشام». حمل التنظيم هذا الاسم فى أبريل 2013 ولكنه غيّر اسمه إلى «الدولة الإسلامية» فى يوليو الماضى حين أعلن «الخلافة».

ويثير هذا التنظيم القلق لدينا، كما عند غيرنا، حيث يؤكد ولكن خطابنا الرسمى أننا مستعدون للقضاء عليه إذا أتى إلينا. وهذا يعنى أننا نترقب قدومه من الخارج، فى حين أن خطره يكمن هنا فى الداخل.

فالعنف لا يأتى من الخارج، وإنما قد يلقى دعماً من جهات أجنبية. وإذا لم توجد جذور له فى الداخل، أى داخل، لن يجد أحد فى الخارج ما يدعّمه. العنف ظاهرة اجتماعية- سياسية ترتبط ببيئة تنتجها، ولا تهبط من السماء. وما الإرهابيون المتنقلون العابرون للحدود، بمن فيهم الأوروبيون الذين يقاتلون الآن فى سوريا والعراق، إلا هوامش فى ظاهرة آخذة فى التضخم لأسباب تكمن فى البيئة الداخلية للمجتمعات والدول العربية قبل كل شىء.

ولذلك تمثل هذه البيئة المجتمعية المصدر الرئيسى للخطر الذى باتت كلمة «داعش» ترمز إلى أعلى مراتبه. يكمن هذا الخطر فى أعداد هائلة

ومتزايدة من الشباب الضائع الذى تتباين مشاعره بين الإحباط والمرارة والاستياء والنقمة والغضب والاغتراب. كما يكمن فى مجتمع مضطرب ممزّق يحاول جزء منه التمسك بالأمل الجديد، ويسعى قسم ثان إلى تحطيم هذا الأمل، بينما يفتقد بعض ثالث أى يقين بشأن المستقبل.

ويشمل التمزق المجتمعى مختلف مناحى الحياة وأنساق القيم والعلاقات الاجتماعية. فالمجتمع يمر بحالة غير طبيعية تجعله مؤهلا لإنتاج التعصب والتطرف وما يترتب عليهما من استعداد للعنف الذى لا يلجأ إليه البعض بسبب الفقر فقط. فقد اختل توازن المجتمع على مدى عقود تراكم خلالها كل ما يمكن تصوره من تداعيات سلبية تترتب عادة على الاستبداد والفساد والنهب والإهمال وانتهاك كرامة البشر.

ولذلك يتعاطف مع «داعش» من بعيد، ويذهب إليه فى سوريا والعراق، شباب مصريون لم يعرفوا الفقر ولم يكابدوا معاناته، بل لم يكن بعضهم متطرفين حتى وقت قريب. وقد أثار ظهور أحدهم فى «فيديو» مخيف صدمة مبعثها أننا رسمنا صورة نمطية للإرهاب مرتبطة بالجيلين الأول والثانى للعنف، وليس بالجيل الثالث الراهن. فهذا الجيل «يتدعش» بعضه نتيجة شعوره بالضياع الذى يعتبر الفقر واحداً فقط من أسبابه. وكم من شباب ضائعين فى مجتمعنا الذى تضاعف عدد سكانه بين آخر السبعينات ونهاية العقد الماضى (من 40 إلى 80 مليوناً). وهذه هى المرحلة التى تسلطت فيها على مصر سلطة ارتكبت أبشع جريمة فى تاريخنا الحديث كله عندما تعاملت مع هذه الملايين باعتبارهم أرقاماً صمآء وليسوا بشراً، وتخلت عن مسؤوليتها تجاههم، وانصرفت إلى مصالحها التى اقترنت بأطماع مجموعة من أصحاب الثروات الفاسدة.

ولذلك لم تعن سياسات تلك السلطة بحفظ الحد الأدنى من التوازن فى مجتمع اختنق من شدة الزحام، وتكدس جزء كبير منه فى العشوائيات، واحتقن بسبب حدة الصراعات على فرص قليلة، وتوسعت الفجوة بين شرائحه العليا وما دونها على نحو لا سابق له. وفى مثل هذه الظروف، يزداد عدد الضائعين فى كل جيل مقارنة بسابقه.

ولا يقل خطراً، إن لم يزد، أن هذه الأجيال نشأت فى ظل نظام تعليم شديد التخلف يضع مصر بين الدول العشرين الأسوأ فى العالم فى هذا المجال. وهذا فضلاً عن تدنى قيمة التعليم أصلاً فى مجتمع لم يعد يحترم إلا المال والثروة أو النفوذ والسلطة، ولا يلتفت لعلم أو معرفة أو ثقافة، ولا يترك مجالاً للعقل.

ولذلك تصحرت البيئة الاجتماعية- الثقافية وصارت منتجة للتعصب والتطرف، وطاردة للتنوير، ورافضة للتحديث، ومُقاومة للمدنية والمواطنة اللتين لا تقوم دولة حديثة بدون ترسيخهما.

ومع ذلك، مازالت أمامنا فرصة أخيرة لتجنب «التدعش» اذا حصّنا مجتمعنا بالعدل وحرّرناه من الظلام والظلم وشجعنا الزهور السياسية والفكرية بكل ألوانها لكى تتفتح فيه وتضىء جنباته